

علم الاجتماع الريفي نحو رؤية جديدة وأجندة بحثية مقترحة



د. عالية حبيب (*)

تقديم

تهدف هذه الورقة البحثية إلى مناقشة إحدى القضايا المهمة المثارة في الفترة الأخيرة من قبل المهتمين بعلم الاجتماع الريفي، والتي فرضت نفسها في ظل المتغيرات المحلية والعالمية التي يشهدها المجتمع ككل، وكانت لها آثارها الواضحة على المجتمع الريفي أيضا. لقد تركت تلك المتغيرات آثارا واضحة على المجتمع الريفي، حيث غيرت من بنائه، و من سماته الاجتماعية وخصائص سكانه، بل يمكن القول إنها استطاعت أن تطمس هويته. وأصبحنا اليوم نعرف ريفا لم نعهده من قبل، ريفا مشوها فلا هو ظل على نظامه التقليدي ولا هو استطاع أن يحقق الحداثة، ريفا يتخذ من الحداثة شعارا له وما هذه الحداثة إلا حداثة شكلية وليست حقيقية. ومن هنا كان السؤال : هل نحن في حاجة اليوم إلى وجود علم الاجتماع الريفي في ظل اختفاء الشكل التقليدي للمجتمعات الريفية وطغيان السمات الحضرية ؟

(*) أستاذ علم الاجتماع المساعد ، كلية البنات ، جامعة عين شمس

علم الاجتماع الريفي نحو رؤية جديدة وأجندة بحثية مقترحة **فكر وإبداع**

وقبل مناقشة هذه القضية والتعرف على ما طرح فيها من آراء، وقبل محاولة الإجابة على السؤال الأساسي لهذه الورقة، سنحاول في البداية أن نسترجع بعض ما كتب عن نشأة علم الاجتماع الريفي ومجالاته والأطر النظرية والمنهجية في دراسته وأن نعيد -بإيجاز شديد- قراءة ذلك التراث، عل هذه القراءة تساعدنا على تفسير القضية التي نحن بصدد حلها. وبناء على ذلك سنتضمن الورقة النقاط التالية:

أولاً: نشأة علم الاجتماع الريفي ومجالاته.

ثانياً: المجتمع الريفي: تعريفه وأهميته دراسته.

ثالثاً: سمات المجتمع الريفي وخصائصه.

رابعاً: الأطر النظرية والمنهجية في دراسة المجتمع الريفي.

خامساً: هل ما زلنا في حاجة إلى هذا العلم؟

سادساً: هل نحن في حاجة إلى علم اجتماع ريفي جديد يواكب التحولات التي طرأت على المجتمع الريفي؟

سابعاً: موضوعات وقضايا مقترحة لبحوث علم الاجتماع الريفي.

أولاً: نشأة علم الاجتماع الريفي ومجالاته

ارتبطت البدايات الأولى لنشأة علم الاجتماع الريفي بالولايات المتحدة الأمريكية، حيث ترجع نشأته إلى أواخر القرن التاسع عشر، فقد بدأت مشكلات الريف مع التحضر والتصنيع، وزيادة التوسع في المدن، وتدني الخدمات و المرافق بالمجتمعات الريفية، وباتت هناك فجوة اجتماعية واضحة بين السكان الريفيين والحضرين، مما دفع العلماء و السياسيين و المصلحين الاجتماعيين لجمع الحقائق و المعلومات حول مختلف نواحي الحياة بالمناطق

علم الاجتماع الريفي نحو رؤية جديدة وأجندة بحثية مقترحة **فكر وإبداع**

الريفية الأمريكية، وتبع ذلك عالميا طرح العديد من القضايا المرتبطة بمشكلات المجتمع الزراعي والمزارعين^(١).

وعلى الرغم من أن النشأة الأولى لعلم الاجتماع كانت نشأة أوروبية، إلا أن علم الاجتماع الريفي لم يظهر في أوروبا إلا بعد الحرب العالمية الثانية. ومن الأعمال الأولى التي اهتمت بعلم الاجتماع الريفي، دراسة آدموند بيرنر في عام ١٩٢٠ والتي أجراها عن النظم الاجتماعية والدينية على ١٤٠ قرية، وأكد في تقريره على أن آليات الزراعة والمزارع قد أخذت في النمو والانتشار وهو ما يستحق منا الاهتمام^(٢).

وعلم الاجتماع الريفي هو أحد فروع علم الاجتماع العام، ويرجع الفرق بينهما إلى أن علم الاجتماع العام يدرس كافة الظواهر الاجتماعية بصفة عامة (ريفية و حضرية) ولا يستهدف بالضرورة وضع حلول لما قد تكشف عنه هذه الظواهر من مشكلات، في حين أن علم الاجتماع الريفي يهتم بدراسة الظواهر و المشكلات القائمة في المجتمع الريفي بغرض الوصول إلى الحقائق التي يمكن من خلالها وضع الحلول السليمة لمواجهتها. وهناك علاقة وطيدة تربط بين علم الاجتماع العام و علم الاجتماع الريفي، حيث يمد الأول علم الاجتماع الريفي بالأسس و القواعد والنظريات، في حين يمد الثاني علم الاجتماع العام بالدراسات الحقلية و الميدانية.

وقد ارتبط موضوع علم الاجتماع الريفي بوصف وتحليل الجماعات المتنوعة التي نقيم في البيئة الريفية، وتقديم وصف أكثر دقة وانضباطا لسلوك الناس الذين يعيشون في هذه البيئة، وذلك على غرار علم الاجتماع الحضري الذي يدرس الجماعات والمؤسسات في البيئة الحضرية، وبنفس مأخذ العلوم الطبيعية التي تمدنا بالمناهج العلمية لدراسة الظواهر الطبيعية. فالاختلاف بين العلوم ليس في المنهج، ولكن في الظاهرة التي تخضع للدراسة^(٣).

وجاء هذا العلم لفهم وتشخيص مشكلات الفلاحين الاقتصادية والاجتماعية إلى جانب فهم كثير من القضايا الأخرى كالبناى الاجتماعى الداخلى للمجتمع المحلى، والأوضاع المتغيرة للسكان الريفيين، فضلا عن علاقة الريفيين بالأرض، وكذلك الاهتمام بسمات الإنتاج الزراعى^(٤). فدراسة الحياة فى المجتمعات الصغيرة، ودراسة الاقتصاد الزراعى داخل المزرعة، من إنتاج وتسويق زراعى، إلى جانب الاهتمام بقضايا نوعية الحياة Quality of life فى هذه المجتمعات الصغيرة هو ما يهتم بدراسته علم الاجتماع الريفى^(٥).

وتقودنا هذه المقدمة الموجزة حول نشأة علم الاجتماع الريفى وموضوعه، إلى التطرق إلى تعريف علم الاجتماع الريفى وأهمية دراسته، فضلا عن الوقوف على سمات المجتمع الريفى وخصائصه، وننتهى بعد ذلك بإلقاء الضوء على الأطر النظرية والمنهجية التى شاع استخدامها فى دراسة المجتمع الريفى.

ثانياً: المجتمع الريفى: تعريفه وأهمية دراسته

حاول العلماء الوصول إلى تعريف للمجتمع الريفى، فهناك من قاموا بتعريفه إحصائياً مما جعل تعريف الريف مجرد إصطلاح له علاقة بعدد السكان. وهناك من اعتمد فى تعريفه للريف على التقسيم الاقتصادى للمهن، فى حين عرفه البعض على أنه المجتمع الذى يعتمد غالبية سكانه على الزراعة فى معيشتهم.

ومن الهيئات التى وضعت المعايير الكمية فى اعتبارها عند التمييز بين الريف والحضر، منظمة الأمم المتحدة، وكذلك منظمة التعاون الاقتصادى والتنمية التى حددت المعايير الكمية التى يمكن استخدامها لتمييز وتصنيف المناطق الريفية فى :

- نسبة النشاط الزراعى فى القوى العاملة.

- الكثافة السكانية.

- التقسيمات الإدارية داخل المنطقة.

- حجم السكان في التجمعات السكنية.

كذلك عرف مكتب الإحصاءات القومية بالمملكة المتحدة الريف على أنه " ذلك الذي يشمل المدن الصغرى، والقرى الصغيرة أو المشتتة والتي يقل عدد سكانها عن ١٠ آلاف نسمة ". ومن المؤكد أن الاعتماد على المعايير الكمية فقط في التمييز بين الريف والحضر يمكن أن يكون له تأثير فعال ورئيسي في إيجاد تعريف عام وموحد للحضر والريف^(٧).

ومن التعريفات التي اهتمت بالمعايير الكيفية في تعريف الريف تعريف لورى نلسن الذي عرف المجتمع الريفي على أنه " ذلك الذي يتكون من تلك المناطق التي ترتفع فيها درجة الألفة Intimacy والعلاقات الشخصية غير الرسمية، كما تعد الزراعة هي المهنة الأساسية لسكانه"^(٨).

ومن المفاهيم التي ارتبطت بالمجتمع الريفي، مفهوم الفلاح أو القروي Peasant، حيث عرف علماء الأنثروبولوجيا الفلاحين في ضوء عاداتهم ومعاييرهم الثقافية، بوصفهم بالنظرة المحدودة، والتعلق بالتراث. وهناك من عرفهم على أنهم فئة اقتصادية واجتماعية غير محددة تحديدا دقيقا^(٩). في حين ترى شارلوت سيمور- سميث أن بعض التعريفات تقتصر على تعريف الفلاحين على أنهم المنتجين الزراعيين، بينما تضم تعريفات أخرى إلى فئة الفلاحين صيادى السمك والحرفيين أيضاً وغيرهم من الجماعات المنتجة التي يتشابه وضعها البنائي مع وضع الفلاحين المزارعين^(١٠).

أما الفلاح بالنسبة لريديفيلد فهو عبارة عن مركز حضارى وليس مركزاً مهنيًا، فالفلاح هو حامل للثقافة القروية وليس مجرد شخص يمتن الزراعة. فالزراعة ليست فقط مهنة، وإنما هي كل ثقافى متكامل^(١١).

وإذا ما انتقلنا من الحديث عن تعريف المجتمع الريفي إلى أهمية دراسة المجتمع الريفي، فيرجع ذلك إلى أن المجتمع الريفي يشكل ثقافة فرعية من ثقافة عامة للمجتمع، فثمة خصائص نوعية تميز المجتمع الريفي تتطلب منا التعرف على خصائص هذه الثقافة والظواهر الاجتماعية المحيطة بها.

وترجع أهمية دراسة المجتمع الريفي من وجهة نظر نلسن إلى الجذور التاريخية التي يرجع إليها المجتمع الريفي، فكل مواطن معاصر سواء كان ريفياً أو حضرياً لا يعتبر على علم كامل بحياته إذا لم يتعرف على نصفه الآخر وكيف يعيش. فلا بد لكل شخص سواء هذا الذي يعد نفسه حضرياً أو ذاك الذي يعد نفسه ريفياً، أن يتعرف كل منهما على مجتمع الآخر من حيث طبيعة العلاقات المتبادلة بينهما، والسمات المشتركة أو المختلفة، نظراً إلى أن معظم الأفراد كما يرى نلسن لا بد وأن لهم خلفيات وأصول ريفية^(١٢).

ثالثاً: سمات المجتمع الريفي وخصائصه

بات علماء الاجتماع الريفي - عند تحديد سمات وخصائص المجتمع الريفي - يربطون بين تلك السمات وما يقابلها من سمات وخصائص تميز المجتمعات الحضرية. وقد بدا ذلك واضحاً من خلال المحاولات التي خاضها العلماء في سبيل التفرقة بين الريف والحضر، بدءاً من فكرة الثنائيات والتي يعتبر ابن خلدون أول من لفت الأنظار إليها، عندما فرق بين البدو والحضر على أساس سبل العيش ومصادر الإنتاج والمهنة، وربطه بين الزراعة والبدو، وبين الصناعة والحضر. كذلك ميز دوركايم بين المجتمعات القديمة والمجتمعات الأكثر تطوراً بناءً على وجود شكل معين من أشكال التضامن، حيث يسود التضامن الآلي المجتمع التقليدي، في حين يسود التضامن العضوي المجتمع المتحضر. كما اعتمد تشارلز كولي في التفرقة بين الريف والحضر على أساس طبيعة العلاقات الاجتماعية، حيث رأى أن العلاقات الأولية تغلب

فى المجتمعات الريفية، فى حين تغلب العلاقات الثانوية فى المجتمعات الحضرية.

وتوالت بعد فكرة الثنائيات فى وضع سمات ريفية فى مقابل أخرى حضرية، فكرة المحك الواحد، حيث الاعتماد على محك الحجم أو المهنة أو شكل القوة والسلطة، وقد كان محك الحجم هو الأكثر شيوعا واستخداما. ثم ظهرت بعد ذلك فكرة المحكات المتعددة التى اعتمد أصحابها على أكثر من محك للفرقة بين الريف والحضر، ومنها المهنة، وحجم السكان، ودرجة التفاوت الاجتماعى، والحراك الاجتماعى، وأشكال التفاعل الاجتماعى وغيرها. ومن العلماء الذين تبنوا هذا الاتجاه سوركن وزيمرمان وريدفيلد وورث، ولين سميث^(١٣).

وقد انتهى العلماء فى تحديدهم لخصائص المجتمع الريفي إلى أن المجتمع الريفي مجتمع جامد، ومتناسق ومتناغم، كما أضاف ريدفيلد إلى خصائص المجتمعات الريفية أو الشعبية Folk Society - كما كان يفضل أن يسميها - بأنها تتصف بشبكات اجتماعية وأسرية قائمة على أسس قرابية، كما أنها تتصف بالإجماع بدلا من الصراع، وبالمكانات الموروثة بدلا من المكتسبة. فظروف الحياة الريفية كما يرى ريدفيلد، تؤدي إلى وجود تشابه بين الفلاحين فى نظرتهم للحياة^(١٤).

كذلك حدد عاطف غيث خصائص المجتمع القروى فى الإقامة فى الريف، وشيوع نمط الاقتصاد العائلى، والتمتع بالمكانة الاجتماعية المنخفضة، فضلا عن اعتماد المجتمع القروى اقتصاديا بدرجات متفاوتة على المراكز الحضرية. ومن خصائص المجتمع القروى أيضا بساطة الثقافة والارتباط بالأرض، والعلاقة الوثيقة بالمجتمع المحلى والمحافظة على التقاليد، فضلا عن أن العائلة هى الوحدة الاجتماعية الأساسية بالنسبة للريف^(١٥).

وقد استخلص أحمد زايد خصائص المجتمع الريفي التقليدي كما جاء في تراث علم الاجتماع الريفي في أنه يتميز بالعزلة وصغر الحجم، كما أن المعاش (أي النمط الاقتصادي) هو المعاش الزراعي، والروابط في هذا المجتمع روابط أولية، كما أن السلطة به سلطة تقليدية. ويتميز هذا المجتمع كذلك ببعض القيم القروية وفي مقدمتها قيمة الارتباط بالأرض ومركزية العائلة، ومركزية القرية بمعنى ما تحتله القرية من مكانة مركزية في عقل القرويين مما يفرض على سكانها بعض القيم المتصلة بالعلاقة بالقرية ومنها ضرورة التعاون مع أبناء القرية الآخرين في وقت الشدة، مناصرة أبناء القرية بعضهم البعض في الغربة، تكوين صورة إيجابية عن القرية في مقابل الصورة السلبية عن القرى الأخرى. ومن خصائص المجتمع الريفي التقليدي التي حددها أحمد زايد أيضاً محدودية النظرة إلى العالم، حيث يدرك الفلاحون العالم في حدود قريتهم أو منطقتهم وهم يتركزون حول هذا العالم الضيق، ويعتبرونه نهاية العالم بالنسبة لهم^(١٦).

ويختلف نلسن في كتابه مع من سبقوه فيما جاء بشأن التأكيد على سمات تخص المجتمع الريفي وأخرى تخص المجتمع الحضري كل على حده. فهو يرى أن هناك عناصر مشتركة بين كل من الثقافة الريفية والحضرية لا يمكن إنكارها، بل يمكن أن نقول إنها ملزمة للجميع. ومن هذه العناصر المشتركة المجتمع الواحد الذي يعيش فيه الجميع، اللغة الشائعة، التراث والآداب والفلسفة المشتركة، هذا إلى جانب الدين. كما أن هناك مؤسسات شائعة وعامة بين كل من الريف والحضر، كتلك المؤسسات التعليمية والدينية، ومؤسسة الأسرة والعمل، والتنظيم السياسي. أما الاختلاف القائم بين المجتمعين فيكمن في النمو التاريخي الذي مر به كل مجتمع، حيث سلك كل منهما طرقاً مختلفة ومتشعبة، فمع النمو التاريخي تشعبت الحياة إلى أنماط مختلفة لعبت فيها المهنة والبيئة الجغرافية دوراً كبيراً في اختلاف المدينة عن القرية، كما أن

اختلاف الثقافة عادة ما يكون مسئولية الإنسان الذي يكون متحفزاً دائماً لمواجهة البيئة. وعلى أية حال فالريف هو البداية والأصل، أما المدن فقد نمت بعده بكثير^(١٧).

رابعاً: الأطر النظرية والمنهجية في دراسة المجتمع الريفي

١- الأطر النظرية في دراسة المجتمع الريفي

من المعروف أن علم الاجتماع الريفي يستمد نظرياته من علم الاجتماع العام، وثمة منظوران لدراسة المجتمع الريفي أحدهما منظور مثالي يتمثل في الأطر التي حددتها النظرية البنائية الوظيفية تلك التي يهتم فيها الباحثون بالنسق الاجتماعي وما يوجد داخله من علاقات متبادلة بين كافة الأنساق الفرعية^(١٨). كما تهتم هذه النظرية بتحليل الإطار المرجعي للإنتاج الزراعي، والتعرف على العلاقات الاجتماعية التي تتركز على الأرض^(١٩). أما المنظور الثاني المأخوذ به في دراسة المجتمع الريفي، فهو المنظور النقدي الذي يرتبط بالمادية التاريخية والتي يركز فيها الباحثون على الأساس المادي للحياة الاجتماعية، كما تتبنى بعض الدراسات الريفية أيضاً بعض أفكار مدرسة التبعية التي تربط بين أوضاع الريف وبين الهيمنة العالمية^(٢٠).

وتفيد البنائية الوظيفية في التعرف على الطريقة التي يتكامل بها المجتمع الريفي داخلياً وخارجياً، في حين تفيد المادية التاريخية في دراسة بعض موضوعات المجتمع الريفي ومنها التكوين الطبقي في الريف والتحويلات الاجتماعية والاقتصادية وتأثيرها على نمط الملكية واستغلال الأرض، والتعرف على أنماط الاستهلاك وصور التبادل السلعي في الريف وسوق العمل الريفي وغيرها^(٢١). كما تفيد النظرية المادية أيضاً في فهم نظام الإنتاج السلعي، وأنماط التوزيع غير العادل للدخول المزرعية، وكيفية توزيع الطعام بين فئات الناس المتنوعين اجتماعياً^(٢٢). أما نظرية التبعية فتفيد في دراسة

الأبنية قبل الرأسمالية في المجتمع الريفي والنمو الرأسمالي^(٢٢)، إلى جانب التركيز على الفلاحين الذين ينتجون للسوق في المقام الأول ويستخدمون عمالة غير أسرية^(٢٣).

وإلى جانب تلك النظريات العامة التي ترتبط بتراث علم الاجتماع العام والتي تستند عليها دراسات علم الاجتماع الريفي، يرى أحمد زايد أن هناك نظريات خاصة بالمجتمع الريفي ظهرت كى تفسر سلوكيات بعينها داخل المجتمع الريفي، ومن تلك النظريات نظرية الخير المحدود Theory Of Limited Good التي تقوم على مسلمة أساسية مؤداها أن لكل جماعة تعيش عيشاً مشتركاً، توجه معرفى يشكل رؤيتها للعالم. وفي ضوء ذلك يفترض جورج فوستر G.Foster صاحب الفضل في تطوير هذه النظرية أن التوجه المعرفى الذى يشكل حياة الفلاحين يقوم على ما يطلق عليه "الصور الذهنية حول الخير المحدود". وتعنى هذه الصورة الذهنية أن سلوك الفلاحين يتبلور بطريقة توحى بأنهم ينظرون إلى العوالم المحيطة بهم على أنها عوالم توجد فيها كل الأشياء المفضلة أو المحببة بكميات محدودة، بحيث يكون المعروض منها أقل بكثير من المطلوب. وتفيد هذه النظرية في دراسة موضوعات عديدة في المجتمع الريفي، كدراسة صور التنافس والصراع في القرية ومصادر تكوين المعتقدات الشعبية وغيرها.

ومن النظريات الأخرى الخاصة بدراسة المجتمع الريفي، نظرية الاقتصاد الأخلاقى The Moral Economy Theory، والتي تحاول تفسير السلوك الجمعى للفلاحين، كما تفيد في دراسة طبيعة العلاقة بين الفلاحين والدولة في ظروف تاريخية معينة. ومن النظريات التي أشار أحمد زايد إلى ملائمتها لدراسة المجتمع الريفي نظرية المقاومة Resistance Theory، تلك التي طورها جيمس سكوت والتي تقدم ميكانيزمات للتحايل على بعض الفرضيات كوجود صور من صور الهيمنة لطبقة معينة على مجموعات من الفلاحين

علم الاجتماع الريفي نحو رؤية جديدة وأجندة بحثية مقترحة **فكر وإبداع**

البسطاء في ظل الاقتصاديات البسيطة، مما يخلق صراعاً إيديولوجياً أو ثقافياً بين الأغنياء والفقراء، ويتم مواجهة هذا الصراع كما يرى سكوت من خلال مفهوم "المقاومة الصامتة"، فهي سلاح الضعفاء في مواجهة الأقوياء. وتتجلى صور هذه المقاومة الصامتة في صور من الأقوال الماثورة أو القصص والحكايات. وتفيد هذه النظرية في دراسة أساليب التكيف والتعايش لسكان الريف، كما تفيد في دراسة ثقافة الطبقة العاملة في الريف وغيرها^(٢٤).

٢- الأطر المنهجية في دراسة المجتمع الريفي

أما عن الأطر المنهجية التي تخص علم الاجتماع الريفي، فغنى عن البيان أن الأمريكيين كانت لهم إسهامات واضحة في هذا الجانب، فكما أوضح الأستاذ "هوفستي" Hofstee رئيس الجمعية الأوروبية لعلم الاجتماع الريفي في إحدى محاضراته أن جمع الأمريكيين للبيانات واستخدام وسائل العمل الميداني، ومعالجتهم المهارة لهذه البيانات بواسطة الأساليب الإحصائية، قد قدموا نموذجاً جديداً للبحث، كما "مكنك هذه الأساليب المنهجية علم الاجتماع الريفي الأمريكي من أن يحظى بالاعتراف بأهميته لأنها مكنته من أن يقدم للناس نتائج واقعية ذات قيمة". كما استمد على الاجتماع الريفي أسسه وقواعده من خلال دراسات الأنثروبولوجيين الأوائل الذين قاموا بدراسة المجتمعات البدائية. فقد اعتمد الأنثروبولوجيون الأوائل أمثال مالينوفسكي، وراكليف براون، وإيفانز بريتشارد عند دراستهم للمجتمعات البدائية على المنهج الأنثروبولوجي، حيث الإقامة في مجتمع البحث، وتعلم لغة الأهالي والاعتماد على الإخباريين، فضلاً عن استخدام التصوير وغيرها من الأدوات التي تخص هذا المنهج.

ولما كانت المجتمعات القروية وحتى فترة ليست بالبعيدة- تتشابه في خصائصها مع المجتمعات البدائية من حيث العزلة والتجانس وطبيعة النشاط الاقتصادي، فقد ظل هذا المنهج هو المنهج الأكثر شيوعاً في الدراسات الريفية

، وإن ظهرت بعد ذلك محاولات لتطويره. وجاءت تلك المحاولات على يد ريدفيلد الذى حاول تطوير الاتجاه الأنثروبولوجى القديم المستخدم فى المجتمعات البدائية، حيث أكد على ضرورة أن يهتم الباحثون فى دراستهم للمجتمع القروى بدراسة هذا المجتمع فى علاقته بالمجتمعات الأخرى القريبة والبعيدة وليس كمجتمع منعزل^(٢٤) كما كان الحال بالنسبة للمجتمع البدائى - كما جمع ريدفيلد بين المناهج السوسولوجية والمناهج الأنثروبولوجية فى دراسة المجتمع الريفى، فإلى جانب الملاحظة والإخباريين، والدراسات الوصفية، أكد على الاهتمام بتاريخ المناطق الريفية والاعتماد على السجلات والوثائق والإحصاءات، وكذلك الاستبيان.

وإلى جانب ذلك قدم ريدفيلد فكرة النموذج التى تقوم على إمكانية اختيار مجموعة من القرى من مناطق متنوعة داخل المجتمع الواحد وفق عدد محدد من المقاييس كحجم القرية، عدد السكان، مساحة الأرض، نظام الأرض ودرجة العزلة، حيث تعطينا هذه النماذج خصائص عامة للحياة الريفية فى مجتمع ما دون أن نقوم بعمل دراسة مكثفة وكلية لكل القرى، كما كان يفعل الأنثروبولوجيون فى دراسة المجتمعات البدائية.

ومن الطرق التى أصبح من الشائع اختبارها فى الدراسات الريفية فكرة النمط المثالى، تلك التى يهتم مستخدموها بجمع بيانات من دراسة مجتمعات محلية لتحديد مدى اقتراب هذه المجتمعات من وصف النمط المثالى للحياة الريفية، وتحديد العوامل المسئولة عن اختفاء هذه الخصائص المثالية أو تراجعها على مستوى الواقع^(٢٥).

(٢٤) لمزيد من التفاصيل حول هذه الجزئية أنظر: حسين محمد فهم، بعض الاتجاهات الأنثروبولوجية فى الدراسات القروية، فى: الحلقة الدراسية لعلم الاجتماع الريفى فى الجمهورية العربية المتحدة، المركز القومى للبحوث الاجتماعية والجناينة، ١٩٧١ ص ٦٧-٦٩.

وإلى جانب المناهج السابقة أورد نلسن في كتابه السابق الإشارة إليه بعض المناهج الأخرى التي تسهم في فهم وتفسير واقع المجتمع الريفي، ومنها منهج دراسة الحالة الذي يساعد على تحليل المواقف، التي لا يمكن الكشف عنها من خلال الطرق الكمية، هذا فضلا عن الملاحظة الدقيقة Accurate Observation والإحصاءات، وكذلك الوثائق Documents التي تساعد في التعرف على تاريخ الحياة بالنسبة للفرد وإعادة فهمه وبناءه من خلال ذاكرته. كما أكد نلسن على أهمية تحديد المفاهيم كأحدى أدوات التحليل الهامة التي تفيد في التصنيف والتحليل^(٢٦).

وقد أخذت بعض الدراسات الريفية في تطوير المنهج الأنثروبولوجي، وكذلك استخدام بعض الوسائل المنهجية المتطورة بما يتلائم مع الحركة السريعة التي يشهدها المجتمع الريفي اليوم، ومن المداخل الجديدة في الدراسات الأنثروبولوجية مدخل الراب RAP) وهو اختصار لعبارة طرق التقييم السريع (Rapid Assessment Procedures)، والذي يعد من المداخل التي قدمت حلاً لمشكلة الزمن "الوقت"، حيث تتمثل إسهاماته في أنه يقوم بخطوات للعمل باستخدام أدوات البحث الأنثروبولوجي، إلا أنه يتم إنجازها في وقت قصير وفي مدة تتراوح ما بين ٤ إلى ٨ أسابيع^(٢٧). فالراب هو حالة وسطية تجمع بين المسح السريع والتعمق دون الاستمرار عاما كاملاً في الميدان، إذ يوظف الباحث خبراته السابقة، وتدريبه المنهجي، وقوة ملاحظته ويمضي مباشرة إلى الميدان متناولاً موضوعه^(٢٨).

والى جانب هذه المناهج، كان الاهتمام بتطوير أدوات البحث ومنها استخدام فريق البحث، وكذلك استخدام الأدلة في جمع البيانات. وقد اهتم القائمون باستخدام فريق البحث بتوضيح الخطوات المتبعة في تكوين الفريق بدءاً من تشكيله، ومرحلة إعداداته وتدريبه، مروراً بعملية الإشراف والمتابعة وانتهاء بالصعوبات التي يواجهها الفريق وتتطلب مواجهتها حتى يتمكن الفريق

من أداء مهمته على الوجه الأكمل. وهو ما اتضح جلياً في إحدى البحوث الأنثروبولوجية المتميزة والتي أجريت على مجتمعات ريفية واستطاعت من خلال فريق البحث أن تصل إلى نتائج متميزة، الدراسة التي قامت بها علياء شكرى ضمن مشروع بحثي ضخم عن " أدوار المرأة والتغيرات الديموجرافية" من خلال مكتب العمل الدولي، والذي تولت فيه الإشراف على الجانب الأنثروبولوجي، فقد استعانت الدراسة بفريق بحث مكون من ٩ باحثات من الإناث واثنين من الذكور، فضلاً عن ثلاثة مشرفين. واستطاع هذا الفريق الذي كانت تتوفر لديه خبرات ميدانية متراكمة في مجال الدراسات الأنثروبولوجية أن يجمع مادة متميزة^(٢١). ومما سبق يتضح أن مناهج وأدوات البحث في علم الاجتماع الريفي قد شهدت تطوراً ملحوظاً في ظل الحركة السريعة التي يمر بها المجتمع الريفي.

خامساً: هل مازلنا في حاجة إلى هذا العلم؟

وبعد هذه القراءة السريعة حول علم الاجتماع الريفي من حيث نشأته وتعريفه والموضوعات التي يهتم بها، وكذلك الأطر والمداخل النظرية والمنهجية التي يتبناها في دراساته، نعود إلى مناقشة القضية الأساسية و السؤال الذي طرح في مقدمة الورقة هل ما زالت هناك حاجة إلى وجود علم الاجتماع الريفي في ضوء التطور الذي يشهده المجتمع الريفي الآن ؟

ثمة أزمة حقيقية يعيشها المجتمع الريفي اليوم في ظل شواهد نظرية وميدانية كثيرة تشير إلى وجود انكماش وانحسار في الخصائص الريفية نتيجة للنمو الحضري السريع، وهذا التقلص والانحسار ليس وليد الفترة التي نعيشها الآن، كما أنه ليس وليد التحولات والتغيرات التي شملت المجتمع اليوم على المستوى المحلي والعالمي. فقد أشار كل من أوسكار لويس وراي بال R.Pahl وغيرهما منذ الستينيات إلى أنه لم يعد هناك ما يدعم وجهة النظر التي كانت سائدة عن الحياة الريفية. فقد أصبح الريف يتصف بنفس الخصائص التي يسود

علم الاجتماع الريفي نحو رؤية جديدة واجندة بحثية مقترحة **فكر وإبداع**

الزعم بأنها حضرية، بنفس القدر الذى يتصف به الحضر بالخصائص التى يفترض أنها أشكال ريفية^(٣٠). فمعظم الأفكار والآراء التى كانت تنظر إلى المجتمعات القروية على أنها مستقلة، ومنعزلة ومكتفية ذاتياً قد تغيرت، وحلت محلها وجهة نظر أخرى تنظر إلى هذه المجتمعات على أنها جزء متكامل من مجتمع أكبر سواء من الناحية الثقافية أو الاقتصادية. لقد أدت الفجرات العلمية المذهلة و التقدم التكنولوجى فى أوروبا وأمريكا منذ القرن الماضى، والثورة الزراعية التى أعقبت ذلك بإدخال الآلات وكثرة استخدامها فى العمل الزراعى، إلى تغيرات واسعة النطاق فى الحياة القروية، فظل يدخل عليها الخصائص الحضرية، إلى درجة أن القرية أخذت تتغير معالمها حتى خشى كثير من العلماء أن تنطمس معالمها القديمة^(٣١). إن الأزمة الحقيقية التى يواجهها علم الاجتماع الريفي من وجهة نظرنا، ليست فى التغيرات التى أصبحت تجتاح المناطق الريفية وتغير من سماتها وخصائصها، فالتغير هو سمة من سمات الحياة ولم نعرف على مر التاريخ شعوب ومجتمعات لم يمسسها التغير. المشكلة الحقيقية تكمن فى النظرة المثالية والرومانسية التى ظل العاملون فى حقل علم الاجتماع الريفي يركنون إليها فى تعريفاتهم، ومعالجتهم للقضايا الريفية، حتى بات التغير بالنسبة لهم خطراً يهدد مقولاتهم ونظرياتهم.

لقد أصبح مصطلح المجتمع المحلى اليوم كما يرى الاجتماعيون مصطلحاً رومانسياً Romantic term منذ أن عبرنا إلى التقدم الحضارى، وهذا ما دفع بهم إلى طرح سؤالين : الأول : كيف يمكن أن يستمر المجتمع المحلى فى المجتمع الحديث؟ والثانى : كيف يؤثر غير الريفيين على هذه الاحتمالية ؟

حاول السوسيولوجيون الإجابة على هذين السؤالين كل وفق تخصصه واتجاهه، حيث اهتم الاجتماعيون بالتركيز على معرفة السمات المحلية دون غيرها، فى حين أكد الإيكولوجيون على آليات التكيف، وأولى أصحاب الاتجاه

الثقافي أهمية للقيم والعادات الاجتماعية في المجتمع المحلي، أما المهتمون بالتنظيم فقد وجهوا دراساتهم إلى البناء وحاولوا الكشف عن العلاقة بين المجتمع المحلي والمجتمع الكبير. أما الاتجاه التفاعلي فقد حاول التعرف على تأثير غير الريفيين على حياة المجتمع المحلي^(٣٢).

وتكشف لنا كثير من الكتابات عن تقلص الأشكال الريفية في المجتمع الأمريكي، فوفق إحصاء صدر عام ٢٠٠٠ تبين أن السكان الريفيين يمثلون نسبة ٢١% فقط من جملة عدد السكان. كما أشارت بعض الإحصاءات إلى تراجع نسبة من يديرون مزارعهم وكانت أصولهم ريفية من ٨٠% عام ١٩٧٤ إلى ٦٠% في عام ٢٠٠٠. ويرجع المحللون تراجع عدد السكان الريفيين في الولايات المتحدة إلى عدة أسباب منها: الكساد الاقتصادي الذي أصاب الاقتصاد القائم على التجارة الزراعية Agribusiness، وهو ما عرفه مارشال على أنها "مشروعات استثمارية كبيرة الحجم تعتمد على الزراعة الرأسمالية والصناعات الغذائية وتنتج الأسمدة، والمبيدات الحشرية والمعدات الزراعية، وهي تتسم بكثير من خصائص الصناعات المتقدمة الأخرى". ومن الأمور التي ساعدت أيضا على تراجع عدد السكان الريفيين انخفاض أسعار بعض المحاصيل كما حدث في عام ١٩٩٩ عندما انخفضت أسعار المحاصيل بنسبة ٣٠% مقارنة بالفترة من ١٩٩٥ وحتى ١٩٩٨. كذلك لم يعد إنتاج الطعام هو المصدر الأساسي لتوليد الدخل بالنسبة للفلاحين مما دفعهم للاشتغال بمهنتين أو ثلاث لمواجهة متطلبات مزارعهم، كما تحولت أنشطة كثير من المناطق الريفية من النشاط القائم على الأعمال الزراعية والصناعات الريفية التقليدية (التي لم تعد فعالة اقتصاديا)، إلى صناعات أخرى غير تقليدية كتقنية المعلومات، الفن، تحول القرى إلى منتجعات سياحية، كل هذا عمل على تغيير الشكل التقليدي للحياة الريفية، وعمل على انتعاش هذه المناطق اقتصاديا^(٣٣).

وفي الوقت الذي كشفت فيه إحصاءات عام ٢٠٠٠ في الولايات المتحدة عن انخفاض نسبة السكان الريفيين والتي بلغت ٢١% فقط من إجمالي عدد السكان، جاءت تفاصيل النتائج الأولية للتعداد العام للسكان والإسكان في مصر لعام ٢٠٠٦ تشير إلى أن السكان الريفيين يمثلون نسبة ٥٧،٣٦% من جملة السكان. وقد يرى البعض أن هذه النتيجة قد حسمت القضية التي نحن بصدد مناقشتها، أو أنها قد تنهى المناقشة في هذا الموضوع تماماً، فكيف لنا أن نفكر أو نشكك في عدم ضرورة لعلم اجتماع ريفي، ولدينا تلك النسبة الكبيرة من السكان الذين يعيشون في مناطق ريفية، و هم بالضرورة في حاجة إلى من يبحث مشاكلهم، ويصلح من أحوالهم وتلك مهمة هذا العلم. ونحن نتفق مع أولئك الذين يرون أن فكرة انحسار علم الاجتماع الريفي فكرة من الصعب تصديقها، أو الانشغال بها في ظل ارتفاع نسبة السكان الريفيين، ولكننا نختلف معهم في مدى إمكانية صمود هذا العلم لمواجهة التغيرات والتحولات الواسعة التي اجتاحت وسيطررت على المجتمع الريفي، وطمست ملامحه، ونالت من هويته. وهو ما يدفعنا إلى مناقشة هذه القضية في الفقرة التالية.

سادساً: هل نحن في حاجة إلى علم اجتماع ريفي جديد ليواكب التحولات التي طرأت على المجتمع الريفي؟

لقد شمل التغير معظم جوانب الحياة الاجتماعية والاقتصادية والثقافية بالقرية، و طرأت تغيرات واسعة على خصائص القرية سواء فيما يخص مساحة القرية، أو حجم السكان، أو فيما يخص البيئة الريفية، وطبيعة النشاط الاقتصادي، والأسرة... إلخ. فقد اتسعت مساحات القرى نتيجة التزايد السكاني وانتشر العمران على الأرض الزراعية - رغم تجريم ذلك - كما شهد المجتمع الريفي انفتاحاً غير مسبوق على المجتمع الخارجي بفعل تطور وسائل الاتصال المختلفة، تلك التي قربت المسافات وبالتالي الثقافات، مما خلق لدينا ما أصبحنا نطلق عليه تحضر الريف وتريف المدن. كما تغيرت الأنشطة

الاقتصادية بالقرية وتتنوع في ضوء سيطرة نظام رأسمالي عالمي وكذلك في ظل نمو ثقافة استهلاكية جديدة غزت القرى، مما نجم عنه الاتجاه إلى زراعة المحاصيل التجارية مقابل المحاصيل المعيشية، وانتشار سلع استهلاكية مقابل السلع الإنتاجية. كذلك ظهرت المهن الحرفية والتجارية إلى جانب المهن الزراعية، فالزراعة لم تعد هي المهنة الرئيسية لمعظم سكان الريف، بل أصبحت مهنة ثانوية بالنسبة للكثيرين، وأصبح تعدد المهن بالنسبة للشخص الواحد في مجالات أخرى خارج مجال العمل الزراعي نمط شائع ومتعارف عليه، ناهيك عن التغيرات التي طرأت على الأسرة الريفية من حيث تغير نمطها، ووظائفها وشكل السلطة بها.

ونتيجة لكل هذه التغيرات أصبح هناك ضرورة لوجود علم اجتماع ريفي جديد يواكب كل هذه التطورات، ومن هنا أيضا سعى المهتمون بعلم الاجتماع الريفي إلى هجر الكثير من القضايا التقليدية التي كانوا يسعون دوماً إلى مناقشتها كقضية المقابلة بين السمات والخصائص الريفية في مقابل الحضرية، وأصبح الاهتمام موجهاً إلى قضايا أخرى جاءت مواكبة للتحويلات التي طرأت على المجتمع الريفي. فيشير مارشال في موسوعة علم الاجتماع إلى أن فترة السبعينيات والثمانينيات والتسعينيات وحتى الآن، قد شهدت بداية أعمال جديدة تدور في فلك علم الاجتماع الريفي، حيث ظهرت أعمال تدور حول طبيعة الإنتاج الزراعي الرأسمالي وأثاره الاجتماعية على سكان الريف والمجتمع عموماً، فضلاً عن دراسات تهتم بأبنية القوة في الريف والتدرج الاجتماعي. كما ظهرت في الثمانينيات عناوين مثل المسائل البيئية والاقتصاد الريفي غير القائم على الزراعة وغيرها، مما وسع من أجندة البحث في مجال علم الاجتماع الريفي^(٣٤).

وفي مقالة نشرها توم براس Tom Brass بعنوان "مجلة الدراسات القروية : العقد الثالث"، حاول فيها الوقوف على أهم القضايا الريفية التي

طُرحت في المجلة في الفترة من ١٩٩٣ وحتى ٢٠٠٤، وجد أن من بين القضايا التي طُرحت في فترة التسعينيات و التي أصبحت مثار اهتمام كانت قضايا النوع و البيئة. و قد تم التركيز في الحديث عن موضوع البيئة حول الاقتصاد السياسي للخطاب الإيكولوجي. ومن بين أكثر النقاط التي أثّرت الاستدامة الاقتصادية للمزارع الصغيرة، كيفية التوافق بين التنمية الريفية والسياسة البيئية. وقد جاء الحديث حول البيئة متداخلاً بدرجة كبيرة مع علاقات النوع في مجال الزراعة. و من هنا ظهرت المشكلات بين النساء كعاملات زراعات غير مالكات للأراضي وصغار ملاك من ناحية، وبين تأثير الأدوار المحددة للنوع، كانعكاس للايديولوجيا الجماعية داخل نطاق القرابة ووحدة المعيشة والأعباء المنزلية التي تقع على المرأة من ناحية أخرى.

ومن الموضوعات الأخرى التي أثّرت الاهتمام في فترة التسعينيات قضية النظام الغذائي Food Regimes، التي تم تناولها بالبحث في إنتاج و توزيع الطعام عن طريق مشاريع الأعمال الزراعية المحلية و الدولية^(٣٥).

ولعل الاهتمام بتلك الموضوعات الجديدة، والتي جعلت علم الاجتماع الريفي - كما أشار أحمد زايد - يتجاوز عن ماضيه، وينطلق إلى دراسة موضوعات أكثر ارتباطاً بواقع الريف المعاصر، هي التي ستمكن علم الاجتماع الريفي من الاستمرار كفرع من فروع علم الاجتماع يسعى إلى دراسة موضوعات أكثر إلحاحاً من الموضوعات التقليدية^(٣٦).

ولعل من المفيد الإشارة إلى بعض الدراسات التي اتخذت هذا المنحى في اختيار موضوعاتها وجعلت من المجتمع الريفي مجالاً خصباً لاختبار بعض القضايا النظرية والمنهجية في مختلف مجالات علم الاجتماع، وبذلك أثّرت علم الاجتماع الريفي وأكدت على أهمية وجوده واستمراره. ومن الموضوعات التي طُرحت بهذا الشأن ما يخص المرأة الريفية من حيث مكانتها وقوتها

والأنشطة الاقتصادية التي تقوم بها، كما كانت هناك دراسات اهتمت بتقييم العمل غير المأجور للمرأة الريفية إلى جانب دراسات اهتمت بالتقسيم النوعي للعمل الزراعي. وإلى جانب الموضوعات التي اهتمت بالمرأة كانت هناك موضوعات اهتمت باستخدام الوقت في المجتمع الريفي في ظل التحولات الرأسمالية في الزراعة. وفي مجال الأسرة كان هناك اهتمام بالتعرف على الأنماط الجديدة للأسرة الريفية وخصائص كل نمط^(*) وجميعها موضوعات واكبت التحولات التي طرأت على المجتمع الريفي.

وقد تناول أحمد زايد برؤية ثاقبة بعض القضايا الجديدة التي يراها من مهام الدراسة في علم الاجتماع الريفي في الوقت الحالي، ومنها موضوع سوسيولوجيا الري وما تعالجه هذه القضية من موضوعات مثل معرفة نظم الري التقليدية والحديثة، الأدوار المرتبطة بالري ومشروعات الري الزراعي الكبرى. كما تناول أيضاً قضية مشكلات التنمية في المجتمعات الريفية المستحدثة، وأشار إلى أهمية التعرف على صور التكيف مع المجتمع الجديد، وطبيعة المشكلات التي تواجه المستوطنين الجدد وغيرها. كما عرض لموضوع المشروعات الصغيرة والتمكين الاجتماعي ووضح الدور الذي يقع على علم الاجتماع بالنسبة لعمليات التنمية المرتبطة بالمشروعات الصغيرة، ويتمثل هذا الدور في تحديد طبيعة المشروعات والتعرف على الفئات الأكثر حرماناً والأولى بالقروض^(٢٧).

ومن الموضوعات الجديدة، والتي بدأت تطرح في مجال علم الاجتماع الريفي ويحمل الكثير منها آليات استمرار علم الاجتماع الريفي وعوامل بقائه،

(*) هذه نماذج لموضوعات طرحت من خلال رسائل ماجستير ودكتوراه، بكلية البنات، جامعة عين شمس، قسم الاجتماع، تحت إشراف أ.د/ علياء شكرى، في الفترة من ١٩٨٠ وحتى ٢٠٠٧.

علم الاجتماع الريفي نحو رؤية جديدة وأجندة بحثية مقترحة **فكر وإبداع**

ما كشفت عنه دراسة سابقة للباحثة^(٣٧) من موضوعات أخرى تستحق الدراسة و يدعم وجودها من استمرار العلم في نفس الوقت ولكن هذه الموضوعات لم تحظ بالاهتمام من جانب المشتغلين بعلم الاجتماع الريفي على الرغم من انشغال المجتمع الريفي ببعض منها منذ فترة بعيدة، و استجد الاهتمام ببعضها في الفترة الحالية، وتأمل الباحثة أن تكون هذه الموضوعات بمثابة أجندة بحثية مستقبلية لبحوث علم الاجتماع الريفي في مصر.

سابعا: موضوعات وقضايا مقترحة لبحوث علم الاجتماع الريفي

سنعرض في الفقرة القادمة للقضايا المقترحة لبحوث علم الاجتماع الريفي، وقد جاء ترتيبها وفقاً لأهميتها من وجهة نظر الباحثة وليس لأي اعتبارات أخرى.

١- الإنتاج الرأسمالي في المجتمع الريفي

تبع سياسة الانفتاح الاقتصادي التي أخذت بها مصر في أعقاب حرب أكتوبر ١٩٧٣ كثير من التغيرات على النسق الاقتصادي في القرية المصرية، فقد حدثت تغيرات على نمط الإنتاج وأشكاله، حيث انتشر دخول المشروعات الرأسمالية إلى الريف، تلك المشروعات التي أحدثت - كما أشار محمد الجوهري - آثاراً تخالف تماماً الآثار التي يحدثها دخول هذه المشروعات إلى البيئة الحضرية، حيث إهمال الأرض الزراعية وإهمال العمل الزراعي^(٣٨)

وقد ظهر نمط الإنتاج الرأسمالي في الريف متمثلاً في التحول من زراعة المحاصيل المعيشية التقليدية إلى زراعة المحاصيل النقدية التجارية، فتحول

(**) جاءت هذه الدراسة بعنوان دراسات علم الاجتماع الريفي في مصر: رؤية تاريخية تحليلية. حيث قدمت الدراسة تحليلاً تاريخياً لتطور دراسات علم الاجتماع الريفي في مصر في الفترة من ١٩٧٠ وحتى ٢٠٠٠، معتمدة في ذلك على الملخصات العربية لعلم الاجتماع التي أصدرها مركز البحوث والدراسات الاجتماعية بكلية الآداب جامعة القاهرة تحت إشراف أ.د. أحمد زايد وأ.د. محمد الجوهري.

كبار الملاك إلى زراعة حدائق الفاكهة وفي مقدمتها الموالح، وتحول متوسطى الملاك إلى زراعة الخضر وفي مقدمتها البطاطس والفاصوليا. وإلى جانب ذلك انتشرت أشكال أخرى من الإنتاج الرأسمالى حيث ظهور مشروعات رأسمالية تمثلت فى انتشار مزارع الدواجن لإنتاج اللحم والبيض، ومشروعات تسمين الماشية، وكذلك المناحل. وتلك المشروعات جميعاً أحدثت تغيرات كبيرة على بنية وخصائص المجتمع الريفي، فقد عمل انتشار الزراعة غير التقليدية، والاتجاه لزراعة المحاصيل التجارية، إلى التوسع فى استخدام تكنولوجيا العمل الزراعى التى حلت محل الأيدى العاملة الكثيرة التى كانت تتطلبها المحاصيل التقليدية، وقد تبع ذلك كثير من النتائج ومنها تهميش دور المرأة فى العمل الزراعى. وهذا ما أوضحه أحمد زايد بجلاء فى دراسته التى نشرها بعنوان "النمو الرأسمالى وتغير الأنشطة الاقتصادية للمرأة الريفية"^(*). كذلك أدى التوسع فى الإنتاج الرأسمالى إلى انتشار نمط العمالة المؤجرة بعد أن كان النمط الشائع للعمالة هو العمل العائلى والقائم على المزاملة. كما تبع هذا النمو الرأسمالى أيضاً ظهور الكثير من الأنشطة غير الزراعية وفى مقدمتها الأنشطة التجارية.

اتسع النشاط التجارى فى القرية بشكل ملحوظ، وتخطت الأنشطة التجارية حدود القرية والقرى المجاورة، إلى المدن القريبة والبعيدة، فلم تعد علاقات القرية التجارية تقتصر فقط على التعامل مع القرى المجاورة من خلال الأسواق الأسبوعية، بل تخطت ذلك إلى القرى البعيدة وكذلك المدن وذلك على مدار الأسبوع. كما شهد سوق القرية نفسه تأثراً بالسوق الرأسمالية العالمية أنواعاً جديدة من السلع والمنتجات لم تألفها القرية من قبل، تنامت فى ظل نمو رأسمالى زراعى، وفى ظل ثقافة استهلاكية طاغية.

(*) أحمد زايد، النمو الرأسمالى والأنشطة الاقتصادية للمرأة الريفية، فى: أحمد زايد وآخرون، علم الاجتماع الريفي والبدوي، دار المعرفة الجامعية، ١٩٩٥.

ومن التغيرات التي أصابت المجتمع الريفي أيضاً في ظل النمو الرأسمالي تغير طبيعة البناء الطبقي بالقرية. فعلى الرغم من أن المجتمع الريفي كان يشهد تمايزاً طبقياً منذ القدم، وكان هذا التمايز قائماً على حجم المساحة التي يملكها الفرد، إلا أن هذا المجتمع كان يشهد تجانساً بين هذه الطبقات، حيث كان هناك تشابه في الثقافة، وفي أنماط العمل الزراعي القائم بينهم، وفي أدوات الزراعة التي يستخدمونها، ولكن مع مزيد من تغير تكنولوجيا الزراعة، بدأت معالم طبقات اجتماعية جديدة تتشكل في المجتمع الريفي^(٣٩).

وبناءً على ما سبق نحن في حاجة إلى مزيد من الدراسات التي تكشف عن طبيعة العلاقة بين التحول في نمط الإنتاج الزراعي والتغيرات التي طرأت على القرية، من حيث تأثير ذلك على العمالة الزراعية، وسوق العمل الزراعي وخاصة عمالة الإناث والأطفال. كما أننا في حاجة للكشف عن الاستخدامات الجديدة للوقت داخل القرية في ظل تغير نمط الإنتاج والتوسع في استخدام التكنولوجيا.

٢- الهجرة الريفية الداخلية والخارجية المعاصرة :

عرفت القرية المصرية اليوم، وفي ظل تقلص فرص الهجرة إلى الدول النفطية، أنماطاً وأشكالاً أخرى للهجرة بعضها كان معروفاً من قبل ولكن تغيرت اتجاهاته وخصائص الأخذين به، وبعضها الآخر يعد نمطاً حديثاً نسبياً. ونقصد بالنمط الأول نمط الهجرة الداخلية، هذا النمط الذي عرفته القرية منذ زمن بعيد وكان يستقطب أبناء الريف من الفقراء والأميين، كما كان اتجاه الهجرة فيه متوجهاً نحو المدن الكبرى كالقاهرة والإسكندرية وغيرها. أما اليوم وبعد زيادة الاستثمار في المناطق والمدن السياحية تحولت اتجاهات الهجرة إلى هذه المناطق واختلفت خصائص المهاجرين، حيث استقطبت المتعلمين من شباب الريف. هؤلاء الشباب الذين حصلوا على الشهادات المتوسطة أو العليا ولم يعد العمل الزراعي -الذي انخفضت قيمته - هو العمل الملائم بالنسبة لهم

كما أن انتظار فرصة للعمل بقطاع الحكومة أو القطاع الخاص أصبح وهم كبير وحلم بعيد المنال، ومن هنا كانت تلك المناطق هي الوسيلة الأفضل بالنسبة للشباب للحصول على فرصة عمل وتحقيق بعض الآمال.

كما ظهرت أنماط أخرى من الهجرة الخارجية بالمجتمع الريفي، وهي الهجرة غير الشرعية إلى الدول الأوروبية. التي بدأت تنتشر في الريف في أعقاب حرب الخليج، وعودة المهاجرين، وغلق معظم الدول العربية أبوابها في وجه المهاجرين، مما دفع بالشباب الباحث عن فرص للعمل - في ظل تفاقم مشكلة البطالة - أن يجازف بأمواله، بل وبحياته في سبيل تحقيق ذلك، وبطرق غير شرعية. وعلى الرغم من انتشار هذه الظاهرة وما أثير حولها في وسائل الاعلام المختلفة، إلا أنها كانت من الموضوعات التي لم تأخذ حيزاً من الاهتمام من قبل السوسيولوجيين، مقارنة بما قدمه العاملون في مجال القانون وشنون الهجرة. ومن الدراسات الأنثروبولوجية الحديثة التي اهتمت بهذا الموضوع دراسة ربيع كمال كردى، حول "الأبعاد الاجتماعية والثقافية لهجرة المصريين الريفيين إلى إيطاليا دراسة أنثروبولوجية في قرية تطون بمحافظة الفيوم" تحت إشراف أ.د. علياء شكرى. وقد اختيرت قرية تطون لأنها من القرى التي ينتشر بها نمط الهجرة غير الشرعية بشكل واضح، وهو ما دفع الباحث لاتخاذها ميداناً للدراسة. وقد سعت الدراسة للكشف عن خصائص المهاجرين، ودوافع الهجرة، وكيفية تدبير تكاليف الهجرة وبخاصة أن معظم المهاجرين منها ينتمون إلى الطبقة الدنيا، هذا فضلاً عن تتبع الدراسة للتغيرات التي طرأت عليهم وعلى أسرهم بعد الهجرة^(٤٠).

وما تزال الحاجة ماسة إلى دراسة خصائص هذه العمالة الجديدة، والكشف عن سبل تكيفهم مع الثقافة الجديدة التي انتقلوا إليها، حيث التعامل مع ثقافات أجنبية تخالف جذرياً الثقافة المصرية عامة والريفية على وجه الخصوص، وكذلك دراسة الآثار التي تتركها الثقافة الأجنبية على طرق تعامل المهاجرين

داخل القرية، وداخل أسرهم التي يعيشون فيها. هذا إلى جانب حاجتنا للتعرف على طبيعة المشكلات التي تواجههم، وصور التعاون والصراع بينهم .

٣- وسائل الاتصال الحديثة وواقع المجتمع الريفي :

مع انتشار وسائل الاتصال بصورة هائلة في الريف، وخاصة وسائل الاتصال الفضائية - حيث التوسع في استخدام الأطباق الهوائية التي انتشرت بين مختلف الطبقات والتي ساعد على انتشارها فكرة الوصلات ذات الاشتراك الشهري الزهيد- زاد الانفتاح على العالم الخارجى من خلال القنوات الفضائية المفتوحة. تلك القنوات التي تبث إرسالها طوال أربع وعشرين ساعة، وهى تطل علينا بكم هائل من المسلسلات والأفلام والبرامج والكيلبات الغنائية. وبعد أن كان الفلاحون لا يجذبهم فى التلفزيون إلا المسلسل اليومي أو فيلم السهرة الذى يعرض مرة أو مرتين أسبوعياً، أو متابعة بعض البرامج الأسبوعية وخاصة الدينية، أصبحت الفضائيات تعرض تلك المواد الإعلامية بصورة يومية ومكثفة. فما تأثير هذا الغزو الفضائى وما يبيئه من قيم وسلوكيات لم يألها المجتمع الريفي من قبل على القرية المصرية بعامة؟ وعلى الرجل الريفي على وجه الخصوص؟، ما هى رؤية الرجل الريفي تجاه ما يعرض عليه بصفة يومية من أفلام وكليبات، وما تأثير ذلك على قيمه، وعلى مفهومه عن العمل وقيمة العمل؟ هذه الأسئلة وغيرها تحتاج إلى مزيد من الدراسات من قبل المهتمين بعلم الاجتماع الريفي.

٤- الشباب الريفي من ذوى التعليم المتوسط

أضحى التعليم فى الريف حقيقة واقعة، يحرص عليها الريفيون كما يحرص عليه الحضريون. ويعد التعليم المتوسط هو التعليم الأكثر انتشاراً فى المجتمع الريفي نتيجة لأسباب متعددة يعرفها الجميع فى مقدمتها قصر الفترة التى يقضيها الطالب فى هذه المرحلة ليحصل على شهادته، و انخفاض

المجموع نتيجة تدهور الخدمة التعليمية، وانخفاض تكلفة هذا النوع من التعليم مقارنة بالتعليم الثانوى. وقد تبع انتشار التعليم المتوسط بين فئات المجتمع وعلى الأخص فى الطبقة الدنيا انسحاب العمالة الزراعية من الأرض، مما شكل خطورة اقتصادية على سحب قوة العمل من الزراعة، هذا فضلا عن أن هذا النمط من التعليم يقوم بتوريد حوالى نصف مليون عاطل (متطلع) سنويا - بمعنى وجود جماعة من المتعلمين الذين يتأففون من العمل الزراعى بعد أن أصبحوا من أصحاب الشهادات- لديهم تطلعات (وليست طموحات) فى الحصول على وظيفة لائقة ويفضل أن تكون خارج القرية. و من هنا كانت الحاجة لبحث الهوية الثقافية لهؤلاء الشباب، وتتبع حياتهم العملية، ومعرفة موقفهم من طبيعة الأعمال الزراعية، و مفاهيمهم عن العمل وقيم العمل وتطلعاتهم المستقبلية.

٥- وسائل النقل والمواصلات :

شهدت القرية المصرية فى الآونة الأخيرة تطورا هائلا فى وسائل المواصلات والنقل. وقد تطورت هذه الوسائل بدءا من عربات نصف النقل التى كانت تستخدم فى نقل البضائع والأفراد، ثم عربات الميكروباص المفتوحة من الخلف المستخدمة أيضا فى نقل الأفراد والبضائع الخفيفة، حتى ظهور الميكروباص الذى نشاهده جميعا وبكثرة فى المدن والقرى، وانتهاء بظاهرة التوك توك التى بدأت بالقرى حتى وصلت إلى القاهرة. و تعرف القرية الآن أيضا نوعا جديدا من وسائل المواصلات، كان موجودا بالريف قديما ولكن على نطاق ضيق، ثم انتشر فى الفترة الحالية بصورة لافتة للنظر ألا وهى السيارات الملاكى التى أصبح ملاكها يقومون بتأجيرها ويقومون هم أنفسهم بقيادتها، ولا يستخدم هذه الوسيلة فى الغالب سوى أسر الطبقة العليا الذين تضطرهم الظروف إلى الانتقال خارج القرية لزيارة طبيب، أو زيارة مريض، أو لتقديم واجب عزاء، أو مشاركة فى مناسبة زواج... إلخ، فقد هجرت أسر

الطبقة العليا وبعض الأسر من الوسطى دوار العائلة الذي كانت تقام فيه المآتم والأفراح وذهبوا إلى قاعات الأفراح في المدن والمناطق المحيطة بهم، وغالباً ما تفضل هذه الأسر تلك الوسيلة عن استخدام سياراتهم الخاصة، نظراً لجهلهم بهذه المناطق والتي يرون أن السائقين هم أكثر دراية وخبرة في ذلك. ويطلق أهل القرية على سائقي هذه السيارات سائقي العائلات.

وقد عمل تنوع وسائل المواصلات وانتشارها بالقرى إلى ربط أهل القرى بعضهم ببعض، إلى جانب ربطهم بالمدن المجاورة. ويرجع انتشار هذه الوسائل وازدهارها في الريف إلى جهود الأفراد أصحاب تلك المركبات أنفسهم، وليس بفعل تدخل الدولة التي انحسر دورها انحساراً كبيراً في هذا الشأن وألقى الأمر برمته على عاتق الأفراد.

وبناءً على التوسع في استخدام وسائل المواصلات وتنوعها بالقرية، وعمل كثير من أبناء القرية في هذا المجال، فنحن في حاجة للتعرف على من هم أصحاب هذه السيارات، ومن هم قائدها؟ وما هي خصائص العاملين في هذا القطاع؟ وما هي المعوقات التي تواجههم؟ وثمة ضرورة أيضاً للاهتمام بقطاع نقل البضائع في الريف، هذا القطاع الذي ازدهر وخاصة بعد مد الطرق وتمهيدها وانتشار البضائع والسلع وتنوعها.

٦- المسكن والعمارة

تعرض المسكن الريفي منذ فترة ليست بالقصيرة إلى مجموعة من التغيرات التي أدخلت عليه والتي تمثلت - كما أشار محمود الكردي في دراسة له بعنوان "تأثير أنماط العمران على تشكيل بعض عناصر الثقافة الشعبية" - في تغير طبيعة البناء من الطوب اللبن والطين والبوص، إلى الشكل الحديث الذي يستخدم مواد مثل الطوب الأحمر، والأسمنت، والحديد المسلح. كذلك حدث تغير في طبيعة استخدام المكان، حيث اختفت الحظائر الموجودة داخل

المسكن التقليدي، واختفى الفرن التقليدي ليحل محله فرن الغاز، كما اختفى الشكل التقليدي لاستخدام غرف المسكن والذي قد تستخدم فيه غرفة واحدة من المسكن لأغراض عدة كالنوم واستقبال الضيوف والطعام، إلى الشكل الذي أصبحت بمقتضاه تخصيص كل غرفة بالمسكن لتحقيق غرض محدد، كما تغير التوسع في السكن من الشكل الأفقي إلى الشكل الرأسى^(٤١).

لقد كان من السهل على أى شخص مقيم بالقرية أن يتعرف على هوية سكان المنزل الريفي من حيث انتمائهم الطبقي، وطبيعة عملهم، بل ومعتقداتهم؛ وذلك من خلال ما كان يتميز به المسكن الريفي من خصائص. فعلى سبيل المثال : من كان ينظر إلى المسكن الريفي من الخارج (من حيث مساحته و مواد بنائه وتصميم مداخله ومخارجه) كان يستطيع أن يعرف إلى المستوى الاجتماعي الذي ينتمى إليه المقيمون فيه، وذلك بالنظر إلى مساحة المنزل ومواد بناءه، كما يستطيع أن يعرف أيضا إن كان سكان المنزل يعملون بالزراعة أم لا، وذلك من خلال أشكال أبواب المنزل وتصميمها. فالأسر التي تعمل بالزراعة وتملك ماشية بالضرورة، كانت تصمم للماشية أبوابا خاصة للدخول والخروج. أما من ينظر إلى المنزل الريفي من الداخل (تقسيماته وأثاثه ومفروشات وأدواته سواء المنزلية أو الزراعية)، فإنه يستطيع أن يكشف كذلك عن نمط الأسرة، ونوعية المحاصيل التي يقومون بزراعتها، والمنتجات المنزلية التي تنتج داخل الأسرة، إلى جانب معرفة القيم الثقافية والمعتقدات الشعبية المرتبطة بهم والمستمدة من ثقافة المجتمع الذي ينتمون إليه. أما اليوم فقد كادت هذه الصورة للمنزل الريفي أن تختفى لتحل محلها صورة منزل يماثل مساكن المناطق الحضرية من حيث تعدد طوابقة وتنوع تقسيمات كما سبقت الإشارة. وقد حملت هذه المساكن شبه الحضرية خصائص سكان الحضر من حيث ضعف العلاقات القرابية، وانتشار نمط الأسرة النووية واختفاء الأماكن المخصصة للإنتاج المنزلي، ونحن في حاجة إلى التعرف

على تأثير هذه التغيرات على طبيعة العلاقات السائدة داخل الأسرة الريفية، والأنماط الجديدة للأسرة الريفية في ضوء وجود وانتشار الأنماط الجديدة للمسكن الريفي.

٧- المهن المستحدثة

مع نمو قطاع الخدمات وانحسار قطاع الإنتاج، شهدت القرية تنوعاً هائلاً في المهن، بعدت تماماً عن تلك التي كانت شائعة قديماً في الريف والتي كان معظمها مرتبطاً بالنشاط الزراعي. وقد انتشر هذا القطاع كأحد تداعيات العولمة التي عملت على تقويض الهوية الثقافية، وتدعيم النزعة الاستهلاكية التي تبعتها الابتعاد عن الأنشطة الإنتاجية التي تتطلب وقتاً وجهداً لاقباله عائد مادي مجزى، والاتجاه إلى الأنشطة الخدمية سريعة العائد ومضمونة التسويق. ومن هنا انتشرت المخابز التي تنتج الخبز وتوزعه بدلاً من إنتاجه داخل المنزل كما كان متبعاً من قبل. بل أصبح هناك أفراناً متخصصة في صناعة الحلوى فقط. كما انتشرت المطاعم التي تقدم الوجبات الجاهزة كمطاعم الفول والطعمية والدجاج المشوى. إلى جانب انتشار مقاهي الإنترنت وألعاب الكمبيوتر، ومحلات بيع وإصلاح التليفون المحمول، والسنترالات وغيرها من مهن مستحدثة انتشرت في المجتمع الريفي نحن في حاجة إلى دراستها ومعرفة نظرة المجتمع إلى هذه المهن، ومن هم العاملين فيها وما هي خصائصهم النوعية والعمرية والتعليمية، وكيفية تعرفهم على هذه المهن وبداية عملهم بها، ومدى جدوى هذه المشروعات اقتصادياً واجتماعياً بالنسبة لهم، وبالنسبة للقرى التي ينتمون إليها.

٨- الإحياء الديني

يشير محمد الجوهري في إحدى دراساته إلى أن الدين هو مستودع القيم والمثل العليا ورافد أساسي من روافدها، خاصة في المجتمعات التقليدية

علم الاجتماع الريفي نحو رؤية جديدة وأجندة بحثية مقترحة **فكر وإبداع**

كمجتمعنا. ولكن الواقع الاقتصادي السياسي الذي نعيشه وما صار عليه من تناقضات وما أصبح يمارسه على جماهير الناس من ضغوط، جعل الناس تشعر بعجز حقيقى عن تعديل الأوضاع الخاطئة والمتريدة التى تراها وتكرها، فأخذت تهرب من الحياة بالدين لتقذف به فوق الحياة المعاصرة أو قل فوق الحياة الواقعية^(٤٢).

ويشير أحمد زايد فى دراسة له حول الإسلام وتناقضات الحداثة، عن أن ثمة نمطاً للتدين لدى كل الفئات الاجتماعية، كما أن هناك أنماطاً وأشكالاً للتدين تظهر فى الحياة اليومية يجب أن نميز بينها، ونحاول اكتشاف أيها أكبر شيوعاً لدى الفئات الاجتماعية المختلفة. وقد حدد أحمد زايد فى دراسته أربعة أنماط للتدين وهى: "النمط الأصلى" للتدين وهو الذى لا تظهر فيه أى مبالغات فى الممارسات الدينية أو الرموز الدينية. "النمط الطقوسى" للتدين والذى يتحول فيه الدين إلى مصدر أساسى للأخلاق، ومن ثم فإن التدين لا ينعكس فقط فى الحرص الشديد على أداء الفرائض الدينية ولكن فى السعى الدائم نحو التعليم الدينى الذاتى، ومن الرموز الدينية المصاحبة لهذا النمط ارتداء الحجاب بالنسبة للإناث وتبصير الآخرين بأهميته، قراءة الكتب الدينية، قراءة القرآن بانتظام، الحرص على الصلاة فى المسجد، الحرص على أداء فريضة الحج أو العمرة. أما النمط الثالث للتدين فهو "النمط الشكلاى" الذى يظهر فيه عدم اتساق بين المعتقدات الدينية والنظام الأخلاقى للفرد، حيث تخالف تصرفات الفرد الأخلاقية القواعد الدينية التى يدعى اتخاذها والسير عليها. هذا فضلاً عن "النمط النشاط سياسياً" الذى يصطبغ فيه التدين بالصبغة السياسية التى تنمرد على الواقع وترفضه^(٤٣).

ويمكن القول إن كل الأشكال التى أوردها أحمد زايد لأنماط التدين موجودة بالفعل فى المجتمع المصرى ريفه وحضره، وإن كان النمط الطقوسى والشكلى أصبحا أكثر انتشاراً، فثمة انتشار لظاهرة الحجاب بين الإناث فى المجتمع

علم الاجتماع الريفي نحو رؤية جديدة وأجندة بحثية مقترحة **فكر وإبداع**

الريفي، على الرغم من أن الزي في المجتمع الريفي معروف عنه منذ القدم إنه زي يقارب ويمائل الزي الديني الذي ينادى به اليوم. فالمرأة الريفية منذ القدم ترتدى الجلباب الطويل الفضفاض، وتغطي شعرها بغطاء للرأس وهي ترتدى هذا الزي داخل المنزل وخارجه، ويزيد عليه عند الخروج ارتداء الجلباب ذي اللون الأسود. وعلى الرغم من تلك المواصفات التي كان يتميز بها زي المرأة الريفية، إلا أن التدين في الريف بالنسبة للمرأة قد أخذ رموزاً أخرى حيث ارتداء الخمار، بل وتطور ذلك إلى ارتداء النقاب، وانتشرت تلك الرموز مع زيادة المد الديني في المجتمع الريفي. وقد صاحب ظاهرة المد الديني في الريف بالنسبة للنساء أيضاً ظاهرة خروج النساء إلى المساجد للصلاة وحرصهن على سماع الدروس الدينية بعد أن كان ذلك قاصراً على الرجال فقط، هذا فضلاً عن حرصهن على أداء فريضة الحج والعمرة والتي كان لا يقدر عليها سوى ميسوري الحال من الرجال فما بالنساء. لقد أصبحت كثير من النساء اليوم وخاصة كبار السن منهن يقمن ببيع ما قد يملكونه من قرارات قليلة للوفاء بالتزامات الحج أو العمرة، ومنهن من تقمن بتكرار هذا العمل أكثر من مرة. أما عن مظاهر المد الديني على مستوى القرية ككل فنجد انتشار اللافتات التي تحض على الحجاب وتحذر من عذاب القبر وغيرها، مما نجده على جدران المنازل وفي الشوارع وعلى جدران المساجد وغيرها من الأماكن. ولعل دراسة التدين وأنماط التدين في الريف من الموضوعات التي تتطلب دراسات متعمقة لفهم هذه الأنماط والتعرف على خصائص المنتمين إلى كل نمط.

٩- الترويح ووقت الفراغ :

لما كان وقت الفراغ مرتبطاً بالترويح، ولما كان الترويح ظاهرة وحاجة فريديه، كما هو ظاهرة اجتماعية. فليس هناك إنسان لا يروح عن نفسه بشكل من الأشكال، وليس هناك مجتمع لا يتوفر في تنظيمه الثقافي أساليب وأنماط

للترويج تسود بين أفراد^(٤٤). وسبل الترويج متعددة ومتنوعة في مجتمع المدينة بالمقارنه بمجتمع القرية. حيث انتشار الأندية الرياضية والاجتماعية، والمقاهي، ودور السينما والمسرح، والمكتبات العامة، والساحات الشعبية. في حين أن هذه السبل الترويجية تكاد تنعدم في المجتمع الريفي، فكيف يقضى سكان الريف أوقات فراغهم في ظل انعدام سبل الترويج السابق الإشارة إليها.

كانت الوظيفة الترفيهية من الوظائف الأساسية التي تقوم بها الأسرة القروية بالنسبة لأبنائها و كان نمط الأسرة الممتدة يدعم هذه الوظيفة بشكل كبير. وقد اختفت تلك الوظيفة الآن لأسباب كثيرة منها تراجع نمط الأسرة الممتدة وظهور الأسرة النووية، وكذلك خروج المرأة الريفية للعمل، وانشغال الأب بأكثر من عمل لمواجهة متطلبات المعيشة مما قلل من فرص التقاء أفراد الأسرة مع بعضهم البعض، إلى جانب التوسع في استخدام وسائل الاتصال المختلفة والتي يشملها التطور يوما بعد يوم، ولن نخفل الدور الكبير الذي لعبه الرفاق والأصدقاء في هذا الشأن.

وعلى الرغم من انعدام وسائل الترفيه - اللهم ما إلا وجود مراكز الشباب- فقد أنطلق شباب القرية لقضاء أوقات فراغهم في المدن القريبة من قراهم، حيث انتشار محال الوجبات السريعة، وصالات الرياضة، والسيير كافيته، ومما يسر عليهم هذا الأمر توفر وسائل المواصلات على مدار اليوم.

وإلى جانب خروج الشباب إلى المدن القريبة والبعيدة في بعض الأحيان، عرفت الأسر الريفية رحلات اليوم الواحد حيث تجتمع أكثر من أسرة، ويستأجرون سيارة ينطلقون بها إلى المدن الساحلية مع أزواجهم وأبنائهم لقضاء يوم خارج القرية، وقد بات هذا النشاط من الأنشطة الترويجية الموسمية التي يحرص عليها عدد لا بأس به من الأسر الريفية. ما هو مفهوم وقت الفراغ؟ وما هي أشكاله، واستخداماته، ومن هي الفئات الاجتماعية التي تأخذ به، وسبل تمضيته في كل فئة؟ تلك التساؤلات نطرحها للدراسة.

١٠- أنماط العمالة الجديدة:

تبع تنوع الأنشطة الاقتصادية وتطور الأنشطة المحيطة بالزراعة ودخول أنشطة جديدة لم تكن موجودة من قبل، ظهور فئات وأنماط عمالة جديدة داخل القرية. فقد أدى تنوع النشاط الاقتصادي بالقرية - على الرغم من أن النشاط الزراعي ما زال هو النشاط الرئيسي لمعظم السكان- إلى ظهور فئات متنوعة من العمالة، تقوم بأنماط مختلفة من الأنشطة. فقد أصبح من الشائع أن نجد موظفاً يعمل كهربائياً، كمهنة ثانوية، ومدرس يعمل نقاشاً، وموظف يستأجر أرضاً لزراعتها، وآخر يمتلك محلاً لبيع أكسسوار السيارات إلى جانب وظيفته وغيرها، وهذه جميعها مهن قد تبدو لنا مهناً ثانوية ولكنها في الحقيقة تقوم مقام المهنة الأساسية لأنها هي التي تدر على صاحبها عائداً أكبر، كما أنها تستغرق معظم وقته وجهده مما يخلق لدينا صعوبة في تصنيف هذه الأنماط الجديدة من العمالة.

ارتبط كذلك بالتطور الذي أصاب الأنشطة الزراعية من توسع في استخدام الآلة، والاتجاه لزراعة المحاصيل التجارية، وظهور أنشطة جديدة محيطة بالزراعة - كوجود مشروعات تربية الماشية، ومشروعات مناحل العسل وغيرها - انتشار العمالة المؤجرة، تلك العمالة التي شملت النساء والأطفال الذين تم تهميشهم من العملية الزراعية في ظل توسع النمط الرأسمالي في الزراعة. وقد أخذت تلك العمالة المؤجرة شكل العمالة اليومية، تلك التي تستلزم ساعات عمل أقل مقابل الحصول على أجر أعلى. وقد ظهرت أنماط متعددة من تلك العمالة على مستويين كل من الإناث والذكور. فعلى مستوى الإناث ظهرت العمالة المؤجرة باليومية في الأعمال الزراعية، وكذلك العمالة المنزلية (خدم المنازل) سواء داخل القرية، أو خارجها (في القرى والمدن القريبة). أما على مستوى الإناث المتعلّمات فقد بدأن في العمل في مجال الأعمال الخدمية بالقرية، كبائعات في محلات البقالة (السوبر ماركت)،

علم الاجتماع الريفي نحو رؤية جديدة وأجندة بحثية مقترحة **فكر وإبداع**

وعاملات في السنترالات، وفي استديوهات التصوير والكوافير وغيرها. أما الذكور فإلى جانب اشتغالهم بالأعمال الزراعية، اتجه العديد منهم إلى العمل باليومية في أعمال البناء والمعمار التي انتشرت بالقرية واستقطبت الكثيرين منهم.

كما أدى تقلص الأنشطة التجارية التي كانت مرتبطة بالزراعة إلى ظهور فئات أخرى من العاملين في مجال تجارة المواد الغذائية والأدوات المنزلية والمشروبات الغازية وغيرها من سلع حديثة، دعمت من وجودها انتشار ثقافة الاستهلاك بين الريفيين. هذا إلى جانب ظهور فئة العاملين في صناعة الطوب والأخشاب والموبيليا التي ازدهرت في ظل ازدهار حركة المعمار والبناء بالقرية.

ولا يفوتنا ونحن بصدد الحديث عن أنماط العمالة الجديدة في الريف والتي خلفتها التحولات العالمية والمحلية التي غيرت من المجتمع ككل، أن نتعرف على أنماط أخرى من العمالة ظهرت نتيجة ما أصاب البناء الاجتماعي الاقتصادي من خلل، ومن هذه الأنماط الممولين، والسماصرة، ومقرضى الأموال، وأخيرا موظفي الأموال الجدد (الريان سابقا)، تلك الفئات الطفيلية التي استشرت في المجتمع ككل حضره وريفه.

هذه الأنماط الجديدة من العمالة الريفية تحتاج منا البحث فيها، والتعرف على طبيعة الأسر التي ينتمون إليها، ونوعية الخدمات التي يقدمونها، وأشكال الاستغلال التي يتعرضون لها، ووعيهم الطبقي لأنفسهم، ومكانة هذه المهن بين المهن الأخرى بالقرية ونظرة المجتمع لها.

١١- لغة الحياة اليومية :

إذا كنا بصدد تقديم رؤية جديدة للمجتمع الريفي ومحاولة قراءة وفهمه من جديد في ظل ما يمر به اليوم من تغيرات، فمن الضروري أن نتعرف على لغة

الحياة اليومية لهذا المجتمع يقول محمد الجوهري في مقدمته لمعجم لغة الحياة اليومية " إذا كانت دراسة التراث الشعبي لأى جماعة هى المدخل الأصق والأدق لفهم الطابع القومى أو شخصية تلك الجماعة، فتلك المهمة تتكفل بأدائها على خير وجه معرفة لغة الحياة اليومية الشائعة بين أفرادها، وما تمر به تلك اللغة من عمليات تغير وتفاعل وتطور" (٤٥).

فئة تغير حدث فى الشخصية القروية، وثمة تهديد للهوية الثقافية، جاء نتيجة ما شاع من استخدام كثير من مفردات اللغة المحرفة والألفاظ غير المصرية بين فئات الناس، كاستخدام الألفاظ الأجنبية، واستخدام صياغات مختصرة لعبارات أطول. وقد عدد محمد الجوهري فى مقدمته السابق الإشارة إليها العوامل التى دفعت الناس إلى استخدام هذه الألفاظ وتداولها وانتشارها ومنها على سبيل المثال، انتشار المدارس الأجنبية وانتقال الألفاظ الأجنبية من التلاميذ والخريجين من هذه المدارس إلى زملائهم وأقاربهم، ويتعجب الجوهري من وجود شباب من قلب الريف، بل ممن لم يحصلوا سوى التعليم المتوسط، من حرصهم الشديد على تضمين كلامهم كلمات وتعابير أجنبية. وإلى جانب المدارس الأجنبية كأحد العوامل التى دفعت الناس لاستخدام الألفاظ الغريبة عن الثقافة المصرية عموما والثقافة الريفية على وجه الخصوص دخول الثقافة والتكنولوجيا الحديثة وفى مقدمتها الكمبيوتر والتليفون المحمول، بالإضافة إلى وسائل الإعلام وفى مقدمتها التلفزيون والقنوات الفضائية، وما ارتبط بكل ذلك من مفردات جديدة انتشرت بين فئات المجتمع الريفي، وغيّرت من لغة الحياة اليومية له. ومن هنا فعلينا دراسة هذه اللغة وفهمها، والوقوف على عمليات تشويهها وتحولها ودراسة الفئات الأكثر تبنيًا لها والأسباب المؤثرة فى ذلك.

وبالإضافة إلى الموضوعات السابقة هناك موضوعات أخرى شائكة تقع ضمن المحظورات (Taboo) التى لايجرؤ كثير من الباحثين الاقتراب منها

وخاصة في المجتمع الريفي، كموضوع العلاقات الجنسية غير المشروعة (شبكات الآداب)، الزنا بالمحارم، الاغتصاب، الجرائم العائلية، وعلى الرغم من أن الدراسات الحقلية للأنثروبولوجيين الأوائل لم تخل من مناقشة مثل هذه الموضوعات، مثال دراسة مالبينوفسكى عن "دار العزاب" في جزر التروبريان، إلا أن انتشارها في الريف عن ذي قبل يجعل من الضروري دراستها وتبسيط الضوء عليها. والمعروف قلة الدراسات التي تتناول هذه الموضوعات نظراً لأن صعوبة الدراسة لا تعود فقط إلى قصور الإحصاءات الرسمية، أو نقص البيانات والوثائق الرسمية التي تكشف عن حجم هذه الظواهر ومدى انتشارها، بل إلى تخرج الناس من مناقشة هذه القضايا التي يعد الخوض فيها عيباً في نظر الناس سواء من الباحث الذي جراً على "فتح" هذه الموضوعات، أو الشخص الذي "جاراه" وخاض معه في الموضوع. فدراسة مثل هذه الموضوعات تحتاج إلى مجتمع أكثر شجاعة وشفافية.

الختامة :

ناقشت هذه الورقة إحدى القضايا التي شغلت المهتمين بعلم الاجتماع الريفي في الفترة الأخيرة وحاولت الإجابة عن سؤال محدد : هل يمتد أثر ظروف المجتمع المعاصر التي دمجت المجتمع الريفي في النظام الدولي أو العالمي وما تبع ذلك من انهيار الحدود بين ما هو ريفي وما هو حضري إلى تبني وجهة النظر القائلة بعدم وجود ضرورة لعلم الاجتماع الريفي ؟

وقد قدمت الورقة في البداية تعريفاً بعلم الاجتماع الريفي ونشأته، ومجالات دراسته، فضلاً عن سماته والأطر النظرية والمنهجية المتبعة في دراسته، وخلصت إلى أن العلماء الذين اهتموا بالمجتمع الريفي صوروا هذا المجتمع على أنه يعيش حالة من التناغم والتجانس والرومانسية، مما شكل لهم أزمة بعد ذلك عندما بدأ التغيير يزحف على المجتمع الريفي ويمحي الكثير من هذه الصورة.

وقد خلصت الورقة إلى أن المهتمين بعلم الاجتماع الريفي قد وقفوا على هذه الحقيقة مؤخرًا، وعرفوا أنه لا خلاص لهم، ولا طريق للحفاظ على وجود علم الاجتماع الريفي إلا بتطوير أدوات وموضوعات العلم لكي تتواءم مع التغيرات المعاصرة ولكي تصبح قادرة على أن تستوعب التحولات الهائلة في المجتمع الريفي المعاصر. ومن الموضوعات الجديدة التي طرحت والتي تمثل أجندة مقترحة لدراسات علم الاجتماع الريفي في المستقبل، موضوعات البيئة والنوع، التحول الرأسمالي في الزراعة، المهن المستحدثة في الريف، أنماط الهجرة المعاصرة، أنماط العمالة الريفية الجديدة، لغة الحياة اليومية.. وغيرها من موضوعات عديدة أخرى

الهوامش والمراجع

(١) محمود عودة ،الوضع الراهن لدراسات علم الاجتماع الريفي فى مصر ،فى: دراسات فى علم الاجتماع الريفي، دار النهضة العربية، بيروت، ١٩٨٢، ص ١٠.

(2) [Http://en.wikipedia.org/wiki/Rural Sociology](http://en.wikipedia.org/wiki/Rural_Sociology)

(3) Lowry Nelson," Rural Sociology", American Book Company, New York, 1969.P.4.

(4) [Httpn://www.sociologyguide.com](http://www.sociologyguide.com)

(5) James H.Copp," Introduction to Sociology",
[www. Soc.lastate.edue](http://www.Soc.lastate.edue).

(٦) تقرير مركز المعلومات وأخذ القرار بمجلس الوزراء، القاهرة، مايو، ٢٠٠٧.

(7) Lowry Nelson, Op.Cit,P.10.

(٨) عاطف غيث، قاموس علم الاجتماع، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٧٤، ص ٣٥.

(٩) شارلوت سيمور-سميث، موسوعة علم الإنسان، المجلس الأعلى للثقافة، المشروع القومى للترجمة، ترجمة مجموعة من أساتذة علم الاجتماع، مراجعة محمد الجوهري ،٥٤٠ ص ١٩٩٨.

(١٠) فاروق العادلى ،المجتمع القروى، دراسة فى فكر ردفيلد من خلال منظور أنثروبولوجى مقارن ،فى :بحوث فى الأنثروبولوجيا العربية مهداة إلى أ.د.أحمد أبو زيد ،تحرير ناهد

علم الاجتماع الريفي نحو رؤية جديدة وأجندة بحثية مقترحة **فكر وإبداع**

صالح، مطبوعات مركز البحوث والدراسات الاجتماعية، كلية
الاداب، جامعة القاهرة، ٢٠٠٢، ص٤٨٥

(11) Lowry Nelson, Op.Cit,P.11.

(١٢) محمود عودة، مرجع سابق.

(١٣) فاروق العادلى ،، مرجع سابق.ص٤٩٢.

(١٤) عاطف غيث، المجتمعات المحلية، المجتمع القروى ،دار
المعرفة الجامعية،الإسكندرية ١٩٨٢،٣٢١.

(١٥) أحمد زايد، علم الاجتماع الريفي، بل برنت للطباعة والتصوير،
٢٠٠٧، ص٧٥.

(16) Lowry Nelson,1969 Op.Cit,P.14.

(١٧) عبد الباسط عبد المعطى، القرية المصرية ،دراسات فى علم
الاجتماع الريفي، دار المعرفة الجامعية، ١٩٩٩، ص١١.

(18) <http://www.sociologyguide.com>

(١٩) عبد الباسط عبد المعطى ،مرجع سابق، ص ١١.

(٢٠) أحمد زايد، مرجع سابق، ص ٦٠.

(21) <http://www.sociologyguide.com>

(٢٢) أحمد زايد، مرجع سابق، ص ٦٠.

(23) <http://www.sociologyguide.com>

(٢٤) أحمد زايد، مرجع سابق، ص ص٦٠:٧٢.

(٢٥) جوردن مارشال، موسوعة علم الإنسان، مج ٢، المجلس الأعلى للثقافة، المشروع القومي للترجمة، ترجمة مجموعة من أساتذة علم الاجتماع، إشراف محمد الجوهري، ٢٠٠٠، ص ٩٨٦.

(26) Lowry Nelson, Op.Cit, PP.4-5.

(٢٧) سعاد عثمان، رؤية جديدة لتطوير المنهج الأنثروبولوجي، في: الصحة والمرض وجهة نظر علم الاجتماع و الأنثروبولوجيا، إشراف محمد الجوهري، دار المعرفة الجامعية، ١٩٨٩، ص ٢٧.

(٢٨) علياء شكري، قضايا المرأة المصرية بين التراث والواقع، مركز البحوث والدراسات الاجتماعية، كلية الآداب، جامعة القاهرة، الطبعة الأولى، ٢٠٠٣، ص ٣٢.

(٢٩) علياء شكري وآخرون، المرأة في الريف والحضر: دراسة لحياتها في العمل والأسرة، دار المعرفة الجامعية، ١٩٨٨، ص ٨٥.

(٣٠) جوردن مارشال، مرجع سابق، ص ٩٨٦.

(٣١) عاطف غيث، ١٩٨٢، مرجع سابق، ص ٣٢٢.

(32) Kenneth P. Wikinson, " The Community in Rural America ", Greenwood Press, 1991, P.4.

(33) Ibid, P.3.

(٣٤) جوردن مارشال، مرجع سابق، ص ٩٨٧.

- (35) Tom Brass," The Journal Of Peasant Studies: The Third Decade", in; The Journal Of Peasant Studies, vol. 32, N.1, January, 2005.P.157;158

(٣٦) أحمد زايد، مرجع سابق، ص ١٥١.

(٣٧) أحمد زايد، المرجع السابق، ١٧٠.

(٣٨) محمد الجوهري، دراسات واقعية في المجتمع المصري، القاهرة ٢٠٠٥، ص ٩٦.

(٣٩) أحمد زايد، مرجع سابق، ص ١٤٤.

(٤٠) ربيع كردى، الأبعاد الاجتماعية والثقافية لهجرة المصريين الريفيين إلى إيطاليا دراسة انثروبولوجية فى قرية تطون بمحافظة الفيوم "رسالة دكتوراة، غير منشورة، كلية البنات جامعة عين شمس، إشراف أ.د. علياء شكرى، ٢٠٠٥.

(٤١) محمود الكردى، التراث والتغير الاجتماعى، الكتاب السادس، تأثير أنماط العمران على تشكيل عناصر الحياة الثقافية: دراسة ميدانية لسياقات اجتماعية متباينة بمصر، إشراف وتحرير محمود الكردى، ٢٠٠٢.

(٤٢) محمد الجوهري، ٢٠٠٥، مرجع سابق، ص ٩١.

(٤٣) أحمد زايد، الإسلام وتناقضات الحداثة، فى: التراث والتغير الاجتماعى، الكتاب الأول، تأليف مجموعة من أساتذة الجامعات، ط١، مطبوعات مركز البحوث والدراسات الاجتماعية، كلية الاداب، جامعة القاهرة، ٢٠٠٢.

علم الاجتماع الريفي نحو رؤية جديدة وأجندة بحثية مقترحة فكر وإبداع

(٤٤) على فؤاد أحمد، علم الاجتماع الريفي، مكتبة القاهرة الحديثة،

الطبعة الثالثة، ص ٧٢

(٤٥) معجم لغة الحياة اليومية، إشراف محمد الجوهري، مركز توثيق

التراث الحضاري والطبيعي، المكتبة الأكاديمية، ٢٠٠٧. ص

٢٠.